إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ش/كانون الأول ٢٠١١م

مظاهر رومانسيّة فى شعر أبى القاسم الشابى

عبدالحميد أحمدى*

الملخص

يعتبر المذهب الرومانسى الذى يعتمد على أسس فلسفية خاصة يعتبر فى أوّل ظهوره تجديدا فى طريق الإحساس والتفكير والتعبير، إنّه ثورة ضدّ القيود التى فرضتها الكلاسيكيّة، إنّه تغيير فى مجال الأدب والفن أثمر عن ظهور نتاج ذاتى متحرّر. والرومانسيّة عندما وصلت إلى العالم العربى كان عهد ازدهارها قد انقضى فى البلاد الأوروبية، لكنّ العالم العربى كان يمرّ بمرحلةٍ من تاريخه تماثل فى ظروفها المأساويّة المتدهورة العصر الرومانسيّ فى أوروبّا. و«الشابّى» كشاعرٍ تأثّر بالتيّار الرومانسى استطاع – رغم قصر عمره – أن يمثِّل المذهب الرومانسى فى تونس أحسن تمثيل، وأن يسهم فى نشره إلى حدٍّ بعيدٍ. فجاء هذا المقال وعلى أساس من المنهج التفسيرى ليكشف عن أهمّ المضامين الرومانسية التى تجلت فى شعر الشابى.

الكلمات الدليلية: الرومانسية، الطبيعة، الحب، الألم.

---

*. عضو هيئة التدريس بجامعة زابل – أستاذ مساعد.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.عبدالحميد أحمدى
Elyasiniahmadi@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/٢٨هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/١٤هـ. ش

المقدمة

فی البحث حول الرومانسيّة ينبغی أوّلا أن نفرّق بين الرومانسيّة كنزعةٍ وبين الرومانسية كمذهب.إن الرومانسيّة كنزعةٍ قديمةٌ فی تاريخ الآداب والفنون لأنّها جزء أصيل من النفس البشريّة وهی تتجلّی منذ القدم فی بعض الأغانی والأشعار، والقصص والحكايات، وهی نزعةٌ تغلب علی معظم أفرادِ البشرِ فی مرحلةٍ من مراحل حياتهم؛ فنراهم ينطوون علی ذاتِ أنفسهم، ويفرّون مِنَ الحياة الجماعيّة التی لايجدون فيها السكون والاطمئنان، ويلجأون إلی عالمٍ من صنع خيالهم. (النويهی، ٢٠٠٠م: ٤١٠)

والروح العربيّة فی العصور السالفة كانت مفعمة بالنزعة الرومانسيّة ولكنّنا قلّما نجد الأدباء عبّروا عن هذه النزعة فی أدبهم بسبب تقيدهم بالموروث الأدبی والذوق العام والنظريّة النقديّة. (الأيوبی، ١٩٨٤م: ٢٥٤) فمن النماذج علی هذه النزعة فی الأدب القديم قولُ الشنفری مؤنِّباً قومه:

ولـی دونَكم أهلـونَ سِـيدٌ عَمَلَّسٌ   وأرقـطُ زهلـولٌ وعرفـاءُ جيـألُ
هم الأهـلُ لامسـتودعُ السِّـرِّ ذائعٌ   لديهـم ولا الجانـی بما جـرَّ يخذلُ

(الشنفری، ١٩٩٦م: ٥٩)

فنری الشنفری فی هذين البيتين يضيقُ ذرعاً بأهله وقبيلته، ويلجأ إلی الطبيعة الحيّة عند الوحوش البريّة ويفضّلهم علی قومه. فهذه هی نزعة رومانسيّة تدخل فی صميم الشعر الوجدانی.

وأمّا الرومانسيّة كمذهبٍ أدبی يتميّز بسماتٍ خاصّةٍ، ويقوم علی أسسٍ فلسفية ونقديّةٍ بارزةٍ، ويتجلّی فيه مظهرٌ واضحٌ من التطورِّ الفكری، فظهرت فی نهاية القرن الثامن عشر، وطغت علی المذهب الكلاسيكی بدعوتها الهادفةِ إلی تحرير العاطفةِ من سيطرةِ العقل. وهذه الدعوة أثمرت عن ظهور أدبٍ ذاتی متحرِّرٍ من جميع الأنظمة والقواعد والقوانين التی أدّت إلی تدهور أوضاع المجتمع مادّياً وأدبيّاً.

إنّ من أهمِّ العواملِ التی ساعدت علی انتشار الرومانسيّة فی العالم الأوروبی هی الحروب المدمّرة التی عمّت أوروبّا فی نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وقد سبّبت هذه الحروب الطاحنة صدمة عنيفة لدى الجيل الذى كان مشبعاً بروح الوطنية والمغامرة ومتطلّعاً إلى انتصارات عظيمةٍ ومستقبلٍ زاهرٍ لبنى الإنسان، فلقد وجد هذا الجيلُ نفسه خائباً ومحروماً من كلِّ هدفٍ وأملٍ، لذا ساد عنده شعورٌ بالخيبةِ والإحباط، والانطواء على الذاتِ، والشكوى من الإجحاف. (الأصغر، ٢٠٠١م: ١١)

والرومانسيّة لم تقتصر على أوروبّا فحسب، بل تعدّتها إلى سائر أنحاء المعمورة لأنها تمثِّلُ الجمال الفكرى والروحى والنفسى والثورى الذى يتّفق مع الأوضاع المأساويّة التى كانت سائدةً فى مناطق مختلفة من العالم فى تلك البرهةِ من الزمن ولا سيّما العالم العربى.

المذهب الرومانسى فى الأدب العربى

بدأ إحساس أدباء العرب بالنفور من الأدب التقليدى الجامد، الذى ورثوه من عصر الانحطاط، منذ القرن التاسع عشر الميلادى، وكان هذا النفور إيذاناً بافتتاح عصر جديدٍ تزدهر فيه القيم العربيّة الأصيلة وتزول عنه صفة الجمود الذى ران على الحياة الفكرية والأدبية. (العشماوى، لاتا: ٩٥)

لقد لجأ روّاد حركة البعث الأدبى فى القرن التاسع عشر إلى الينابيع الأولى للشعر العربى، وخاصّةً فى عصر الازدهار العباسى، لكى يعيدوا للشعر العربىِّ القديم مجده من جديد ويتخطّوا المسافة الشاسعة بينهم وبين الأدب العربى الأصيل. ولقد استطاع محمود سامى البارودى ١٨٤٠-١٩٠٤م، الرائد الأوّل لهذا الاتّجاه، أن يرتفع ببنائه الشعرى ليحاكى به روائع الشعر العربى فى أيامه الزاهرة، كما استطاع أن يحقّق نجاحاً عظيماً فى استعارة الإطار الشعرى التقليدى وتحميله خواطره. (هدّاره، ١٩٩٤م: ١٧)

إنّ الاتّجاه الذى سلكه محمود سامى البارودى استطاع أن يؤثِّر تأثيراً بالغاً فى النهضة الشعرية بعد ذلک، حيث استمرّت حركة البعث (الإحياء) عند مدرسة بأكملها تزعّمها أحمد شوقى ١٨٨٦-١٩٣٢م، وكان من رجالها حافظ إبراهيم ١٨٧٢-١٩٣٢م، وعلى الجارم ١٨٨١-١٩٤٩م، ومعروف الرصافى ١٨٧٧-١٩٤٥م. وكانت هذه المدرسة تدعو

إلى إحياء التراث الشعرى القديم وإعادة مجده من جديدٍ ورفع الجمود والتقليد الجافّ عنه. (الورقى، ١٩٨٤م: ٢٦)

وبعد أن قام شعراءُ مدرسة الإحياء بدورهم الكبير فى إعادة الشعر العربى إلى التدفّق فى مجراه الأصيل الذى اختطّه فى العصور الذهبيّة، ونفى ظواهر الضَعف والانحطاط عنه، استجدّت عوامل سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة على العالم العربى، هزّته هزّاً عنيفاً، وغيّرت من قيمه ونظرته إلى الوجود، ودعا بعض المثقّفين إلى الثورة على كلّ ما هو راسخ فى مجتمعهم ومنه الشعر. ووجد الشعراءُ أنفسهم مدفوعين إلى التيّار الرومانسى الثائر على سيادة المنطق والعقل والداعى إلى اتّخاذ العاطفة أساساً له فى التجربة الشعريّة. (هدّاره، ١٩٩٤م: ٢٢)

وممّا ساعد على انتصار الرومانسيّة فى الأدب العربى وانتشارها انتشاراً واسعاً المدارسُ الأدبيّة التى تجلّت فى مدرسة الديوان، والمهجر وأبولو. فقد دعت هذه المدارس إلى الاتجاه الوجدانى فى الشعر وتصوير ما يجيش فى النفس من خيالٍ وعاطفةٍ وإحساس، والالتفات إلى الطبيعة من خلال عواطف الشاعر وأحاسيسه، والمطالبة بالوحدة العضويّة للقصيدة، والتحرّر من أسر القافية الواحدة، والألفاظ الغريبة، والصور التقليديّة. وكان لهذه المدارس دورٌ كبيرٌ فى تمهيد الطريق أمام التيّار الرومانسى ليعمّ انحاء مختلفة من البلاد العربيّه ومنها تونس، مسقط رأس أبى القاسم الشابى.

المظاهر الرومانسيّة فى شعر أبى القاسم الشابى

كانت تونس كغيرها من البلدان العربيّة التى تظافرت عليها عوامل الانحطاط والجمود فى الشعر، فكان الشعراء كنسخة مكرّرةٍ، لاينفرد شاعرٌ منهم بمزيّة. وكانت الحال هكذا إلى أن ظهرت المدارس الأدبيّة الجديدة التى أشرنا إليها آنفاً. وبظهور هذه المدارس وبانتشار صحفهم الأدبيّة ومنشوراتهم نشأ فى تونس جيلٌ جديدٌ يخالف التقليد ويدعو إلى التجديد، وكان فى دعوته هذه نزّاعاً إلى المذهب الرومانسى. واعتمد التجديد عنده على ركنين: ثورة على المضمون وثورة على الصياغة. (التليسى، ١٩٦٧م: ٧٨)

وفی هذه اللحظة الغنيّة فی مسيرة الشعر التونسی خلال القرن العشرين ظهر فيها علم من أعلام الشعر استطاع رغم قصر عمره أن يصوّر المذهب الرومانسی أحسن تصويرٍ وأن يسهم فی نشره إلی حدّ بعيدٍ، وهذا العلم هو أبوالقاسم الشابی الذی بات أحد أقطاب الرومانسيّة العربيّة.

كان الشابی من أولئک الذين ثاروا علی التعريف الذی يجعل من الشاعر فقط مؤرّخاً لعصره وعاداته وأخلاقه، مؤمناً بأنّ الشاعريّة الحقّةَ أن يرتفع الشاعرُ بروحه إلی آفاقٍ فسيحةٍ أرحب وأسمی من سماء البيئة المحدودةِ، إلی عالمٍ من صنع الخيال والأحلام، يعبّر فيه عن عواطفه وأحاسيسه المشبوبة. وهو فی ثورته هذه يسلک مسلک الرومانسيين الذين اتّجهوا إلی ذواتهم واستخرجوا منها أسرار بواطنهم.

وقد أشار الشابی وبكلّ وضوح فی رسالةٍ أرسلها إلی صديقه السوری الدكتور علی الناصر ۱۸۹۴–۱۹۷۰م، إلی ضرورة انحياز أدباء العربِ إلی المذهب الرومانسی. فهو فی هذه الرسالة يقول: «إنّ الأدب العربی فی حاجةٍ إلی ثورة أدبيّةٍ تجتاح كلَّ مارثّ من قديمه، وبلی من جذوعه، إلی نهضة رومانسية تنفخُ فيه روحاً جديداً وتبعث فيه لهيب الحياة القويّة الثائرة، فتخلقه خلقاً جديداً يلائم نفوس الشرقيين الطامحين إلی آمالٍ جديدةٍ وحياةٍ كاملة.إنّ أدبنا لم يتحدث بجمال الوجود، ولم ينبع شعره برحيق هذه الفتنة الساحرة؛ فنحن فی حاجةٍ إلی من يحدّثنا بمثل ذلک، إنّ أدبنا لم يتحدّث عن عواطف الإنسان البعيدة وآلامه العميقة وأفكاره الغريبة المستترة النائية ونحن فی حاجةٍ إلی من يحدثنا بذلک.» (كرو، ۱۹۹۹م، ج۵: ۱۹۷)

وفی قصيدة فكرة الفنّان يؤكد الشابی كغيره من الرومانسيين علی كونِ الشعور أساساً فی نظم الشعرِ ويقولُ:

عِش بالشـــعورِ وللشّـــعورِ فإنّما	دنيـــاک كـــونُ عواطف وشـــعور
شِيْدت علی العطفِ العميق وإنّها	لتَجفّ لو شـــيدت علـــی التفكير
واجعل شعورَک فی الطبيعة قائداً	فهـــو الخبيـــرُ بتيهها المســـحور

والعقــلُ رُغْــم مشــيبه ووقاره　　　مازال فــى الأيّــام جِــدَّ صغيرِ

(الشابى، ١٩٩٧م: ٧٩-٧٨)

فالشاعر فى هذه الأبيات يؤثر الحسّ والعاطفة على العقل والمنطق، ويدعو إلى تحرير العاطفة والشعور من سيطرة العقل ويسلّم القياد إلى القلب لأنّه الخبير بكنه الأشياء وحقائقها.

والشابى - كشاعرٍ رومانسى- ركّز على الجانب الوجدانى من التجربة الشعريّة وعالج فيها موضوعات رئيسة تتصف بكلٍّ مواصفات المذهب الرومانسى. فمن هذه الوضوعات؛ الطبيعة، والمرأة والحبّ، والإحساس الحادّ بالألم والتشاؤم.

الطبيعة

كانت الطبيعة من الموضوعات التى ظهرت فى معظم الأعمال الأدبيّة على مرِّ العصور. ونَحن إذا تدبّرنا وأمعنّا النظر فى الآثار الأدبيّة العربيّة التى وصلتنا من القرون السالفة نجد أنّ شعراءَ العرب منذ الجاهليّة قد اتجهوا نحو الطبيعة ومظاهرِها، ووصفوها وصفاً دقيقاً، وتغنّوا بجمالها وزوايا الحسن فيها.

ولكنّنا نلاحظ فى آثار معظم هَؤلاء الأدباء أنّهم اعتنوا بالتسجيل التصويرى والتوصيف المادّى للطبيعة فقط، فمثلاً ابن خفاجة الأندلسى ١٠٥٨-١١٣٨ الشاعر المبدع فى وصف الطبيعة يصف نهراً بقوله:

لله نهــْـر ســال فــى بطحــاء　　　أشهى وروداً من لمى الحسناءِ
متعطّــفٌ مثــلُ السِّــوار كأنّــه　　　والزهــرُ يَكنُفــه مجرُّ ســماء
قــد رَقَّ حتّى ظُنّ قرصاً مفرغاً　　　مــن فضَّةٍ فــى بــردةٍ خضراء

(ابن الخفاجة الأندلسى، لاتا: ١٢)

فابن خفاجة فى هذه الأبيات اعتنى بالشكل الخارجى للطبيعة ولم يلتفت إلى روح الطبيعة ذاتها ويسقط عليها من إحساسه وعواطفه ما يجعلها كائناً حيّاً ترثو لحاله عندالحزنِ والألم.

ولكنَّ الشابیّ، كشاعر تأثّر بالتيّار الرومانسی، مزج بين إحساسه ومظاهر الطبيعة من حوله، واتّخذ من الغاب والعصفور والزنبقة والبلبل مستودعاً لأسراره وهمومه،لأنه لم يجد أفضل من الطبيعة يلجأ إليها ويبثّها شكواه؛ ويعود ذلک لعدّة أمور أهمّها: ولادة الشاعر فی منطقة جبلية وتنقلّه المستمرّ منذ صباه من منطقة إلی منطقة أخری، الأمر الذی غذّی حبه للطبيعة ومظاهرها الخلابة أضف إلی ذلک تنكّره للحياة الاجتماعية وتقلّبات النّاس ومكرهم وخداعهم ممّا جعله يری الطبيعة مدعاة سكون واطمئنان نفسی. (البعينی، ٢٠٠٨م: ١٠٥) فهو فی قصيدته أحلام الشاعر يتمنّی أن يعيش فی أحضان الطبيعة بعيداً عن الناس، ويخلو بذات نفسه، ويحلم ويستسلم ويصغی إلی صوت فؤاده، فيقول:

ليت لی أن أعيش فی هذه الدُّنـ ـيا سـعيداً بوحدتی وانْفرادی
أَصْرِفُ العمرَ فی الجبالِ وفی الغا بـاتِ بيـن الصّنوبـر الميّـاد
ليس لی من شواغل العيش مايص رف نفسی عن استماع فؤادی
أرقب المـوت والحياة وأصغی لحديـثِ الآزالِ والآبـادِ
وأغنّـی مـع البلابـل فـی الغا ب وأصغی إلـی خريرِ الوادی
عيشـةً للجمـال والفـنّ أبغی هـا بعيداً عـن أمّتـی وبلادی

(الشابی، ١٩٩٧م: ٦٣)

والشابی فی قصيدته (إلی الغابِ) يشير إلی الشعور الذی ينتابه عندما يكون فی الغاب بين صفوف النخيل والتلاع الخضر والآجام، إنّه شعورٌ يملأ عليه دنياه بهجةً وسروراً ويسوقه إلی عالمٍ من الخيال ينسی فيه الشاعرُ كلّ همومه وأحزانه.

فی الغابِ دنيـا للخيالِ وللرؤی والشِّـعر والتفكيـرِ والأحـلامِ
فی الغابِ فی الغابِ الحبيبِ وإنّه حـرمُ الطبيعة والجمالِ السـامی
طهّرتُ فی نارِ الجمالِ مشاعری ولقيـتُ فی دنيا الخَيالِ سـلامی
ونَسِـيْتُ دنيا الناس فهی سخافةٌ سـكری من الأوهـامِ و الآثامِ
وقبستُ من عَطْفِ الوجود و حُبّه وجمالِـه قبسـاً أضـاء ظلامی
فرأيـتُ ألـوان الحيـاةِ نضيـرةً كنضـارةِ الزَّهر الجميـل النامی

فأهبتُ مســحورَ المشاعرِ حالماً　　　نشــوان بالقلب الكئيــب الدامى

(المصدر نفسه: ۱۰۹)

إنّ الشابى فى هذه الأبيات يرى الغاب قبساً أضاء الطريق أمام نفسه التائهة فى الظلمات الحالكة، كما يراه وسيلةً طهّرتْ نفسه من الأدران والأوساخ التى لحقتْ بها بسبب مجالستِها جلساءَ السوءِ، ثمّ يشير إلى أنّ الغاب معبدُ الروح والنفس والفكر الذى يجد فيه الشخص الراحة والطمأنينة ويتخلّص به من هموم الحياة وأعباء المجتمع.

المعبــدُ الحــيُّ المقــدَّسُ ههنــا　　　ياكاهــنَ الأحــزانِ والآلام
فاخلعْ مسوحَ الحزنِ تحت ظلاله　　　والْبــسْ رداء الشــعر والأحــلام

(المصدر نفسه: ۱۱۱)

والشابىّ فى قصائده لم يتوقف عند حدود المظاهر الطبيعية الصامتة بل تعدّاها إلى مظاهر طبيعية حيّة، والتفت إلى البلبل، والعصفور، والنحل والفراش وغيرها من هذه المظاهر. فنراه فى قصيدة له بعنوان مناجاة عصفور يخاطب العصفور ويبثّه شكواه، فيقول:

يــا أيّها الشــادى المغــرّدُ ههنا　　　ثمــلاً بغبطــة قلبــه المســرور
غــرّدْ ففى قلبــى إليک مــودّةٌ　　　لكــنْ مــودّةُ طائــر مأســورِ
هجرتْه أسرابُ الحمائم وانْبرتْ　　　لعذابــه جنّيّــةُ الديجــورِ
غــرّدْ ولاترهــبْ يمينــى، إنّنى　　　مثلُ الطيور بمهجتى و ضميرى
أشــدو برنّات النياحة والأســى　　　مشــبوبةً بعواطفــى وشــعورى
غــرّد ولا تحفِــل بقلبــى، إنّــه　　　كالمعــزفِ المتحطّــم المهجور

(المصدر نفسه: ۷۶)

إنّ هذه الأبيات تدلّ على اندماج الشاعر فى الطبيعة ومحاكاةٍ لها فى غاية الروعة والتصوير. إنّ الشاعر فى هذه الأبيات يخاطب الطائر ويبثّه شكواه ويحثّه على التغريد. إنّه يرى نفسه طائراً يغرّد بصوت الكآبة والزفير، طائراً يغمره إحساسٌ عميقٌ غريب عندما يسمع صوت الطيور المتدفّق من صميم قلبها المملوء حرارة وإخلاصاً. إنّه يرى

سعادته وسروره فى التحدثّ مع الطيور والاستماع لشدوها وتغريدها، والابتعاد عن الناس الذين لايرى فيهم إلاّ كلّ غادر وخبيث، جلُّ همّه أن يُرضى نفسه ولو كان ذلك على حساب ظلم الآخرين.

آهٍ من النــاس الذين بلوتُهم   فَقَلَوْتُهم فى وحشتى وسرورى
مــا منهــم إلاّ خبيــثٌ غادرٌ   متربِّــصٌ بالنّاس شــرّ مصيرِ

(المصدر نفسه: ٧٧)

فجميع قصائد الشابى تكاد لاتخلو من المظاهر الطبيعية، لأنّه يراها ـ كغيره من الرومانسيين ـ أداةً لبيان مايدور فى نفسه من عواطف وأحاسيس مشبوبة. فمثلاً فى قصيدته إرادة الحياة، تتحوّل الطبيعة بأرضها ورياحها وغابها إلى شخوصٍ حيّة يبادلها الحديث، ويسألها عن حقائق الوجود.

المرأة والحبّ

لعب الحبُّ دوراً كبيراً فى آداب أقوام مختلفة من العالم، وكانت المرأة منذ قديم الزمن بالنسبة للرجل هى المصدر الرئيس لإثارة مشاعر الحبّ عنده، فالتفّ الرجلُ حولها التفافاً جعلت منه شاعراً مبدعاً وفنّاناً بارعاً، ورسّاماً حاذقاً، فكتب ونظم ورسم أحسن آثاره ونتاجاته حول المرأة.

وموضوع المرأه والحب شغل حيّزاً كبيراً فى آثار ونتاجات أدباء العرب على مرّ العصور. والفكر الذى كان يسيطر على روح الكثيرين من الأدباء فى العالم العربى هو أن المرأة مثلٌ للغدر واللؤم وخسّة الطبع، وفى هذا المجال يقول المتنبّى:

ومن خبــر الغوانــى فالغوانى   ضيــاءُ فــى بواطنــه ظــلامُ

(المتنبى، لاتا، ج۴: ٧٢)

وهذه النظرة المادّيّة بالنسبة للمرأة جعلتْ الأدباء لايفهمون منها إلاّ أنّها جسدٌ يُشتهى ومتع من متع العيش الدنىء، فأخذوا يصفون المظاهر الجسديّة فى المرأة من خدٍّ، وردف، وساق، وقدّ وما إلى ذلک من الأوصاف المادّيّة، دون الاعتناء بما وراء الجسد من روحٍ

سامية وعواطف صادقةٍ وأحاسيس طاهرة، تؤدّى إلى السَّير مع الحبيبة فى عالم الخيال والأحلام. فمثلاً جميلُ بثينة، الشاعر العذرى، يتغزّل بمحبوته فيقول:

حلّــتْ بُثَيْنَةُ مِنْ قلبــى بمنزلةٍ　　بينَ الجوانحِ لــم يَنْزِلْ بها أحدُ
صادتْ فؤادى بعينيها ومُبْتَسَــم　　كأنّــه حيــن أبْدَتْــه لنــا بَــرَدُ
وجيــدِ أدماءَ تحنوه إلى رشــأً　　أغــنَّ لــم يتّبعهــا مثلَــه وَلَــدُ

(بثينة، ١٩٩٣م: ٩٨)

فجميل بثنية فى هذه الأبيات ركزّ على المظاهر الحسيّة والجسديّة عند المرأة ولم يعتن بما وراء الجسد من روح سامية طاهرة تزخر بمعان قدسيّة.

ولكنّ المرأة فى شعر الشابى المتأثّر بالتيّار الرومانسى احتلّت مكانة رفيعة لم تظفر بمثلها فى الأدب القديم. فلقد اُتّجه الشابى إلى تقديسها والخضوع لسلطانها. فعاطفة الحبِّ عنده كانت بمثابة تجربة روحيّة ترتبط بالمعانى الطاهرة والعفة والصمود أمام الشهوات. هذه العاطفة الصادقة جعلته يرى المرأة ملكا هبط من السماء ليطهّر النفوس من الأوساخ والأدران، ويرفع عنها الغمّة والأحزان، ويسوقها إلى عالمِ الطهارة والأمان، عالم الخيال والأحلام.

إنّ من أروع قصائد الشابّى فى الحبِّ والمرأة قصيدته صلوات فى هيكل الحبِّ، التى تعدّ نموذجاً بارزاً لنضوج الشعر الرومانسى عنده. يبتدأ الشابّى قصيدته هذه بمناجاة حبيبته ويركّز فى وصفه على صفة العذوبة والرأفة والطهر والحنان ويراها مقدّسة عند جميع الناس حتّى الشقىّ العنيد:

يا لها من طهــارةٍ تَبْعثُ التقـ　　ديس فى مهجة الشَقّى العنيد

(الشابى، ١٩٩٧م: ٥١)

ثم يجعلها رمزاً للسعادة وأداة لإدخال الفرح والسرور فى القلوب التعسة، ووسيلة لإحلال الأمن والسلام فى العالم، فيشبهها، بفينيس إلهة الجمال عند الرومان وبملک من ملائكة الجنة، كما يراها طريقاً لتفتّح مواهبه وتنميتها، ونضج عبقريّته وسموها، وسعادة نفسه وسرورها، فيقول:

أی شَـــیءٍ تراک؟ هل أنت فینیـ سُ تهادتْ بین الوری من جدیدٍ
لِتُعیْـدَ الشـباب والفـرحَ المعـ ســولَ للعالَـم التعیـسِ العمید
أم ملاک الفردوس جاء إلی الأر ض لیحیی روحَ السـلامِ العهید
أنتِ تحییـنَ فی فـؤادیَ ماقد ماتَ فی أمســیَ السـعید الفقید
وتُشـیدینَ فـی خرائب روحی ماتلاشـی فی عهـدی المجدودِ
من طموحٍ إلی الجمالِ إلی الفنّ إلـی ذلـک الفضـاءِ البعیـد

(المصدر نفسه: ۵۱)

ونحن إذا تصفّحنا دیوان الشابی وجدنا قصائده التی عالج فیها موضوع الحبِّ والمرأة قریبة جدّاً فی معانیها السامیة من هذه القصیدة، لأنّه یری الحبَّ فی معظمه رمزاً للسعادةِ، والمرأة مثالاً للطهر والإنابة.

الحبُّ شعلةُ نورٍ ساحرٍ، هبطتْ مِنَ السَّماء فکانتْ ساطعَ الفَلَقِ
ومزّقتْ عن جفونِ الدهرِ أغشیةً وعَنْ وجوهِ اللیالی بُرْقَعَ الغَسَقِ
الحـبُّ غایةُ آمـالِ الحیاة فما خوفی إذاضمّنی قبری ومافَرَقَی

(المصدر نفسه: ۹۶)

وفی قصیدة الجمال المنشود، یؤکد الشاعر علی جمالِ روح المرأة وعلی أنّه هو الأساس فی الحبِّ الصادق، فیقول:

وربیعُ الشـباب یُذبلُـه الدهرُ ویمضـی بحسـنه المعبـودِ
غیرُ باقٍ فی الکونِ إلاّ جمالُ الروحِ غضّاً علی الزمان الأبید

(المصدر نفسه: ۵۹)

فالشابی عندما یعالج هذا الموضوع فی شعره تنصهر روحه بروح محبوبته ویحلّقان معاً فی عالم الخیال والأحلام، فی عالمٍ روحانی لایوجد فیه إلاّ الحبّ الحقیقیّ الذی هو رمز السعادة الأبدیّة الخالدة.

الإحساس الحاد بالألم والتشاؤم

ظاهرة الألم ظاهرة عامّة لم تترک شخصاً إلاّ وأصابته بسهامها. فجميعنا وربّما دون استثناء مرّت علينا لحظات طوال أوْ قصار، عانينا خلالها من الحزن والأسى على آمالٍ ضاعتْ، وفرصٍ ولّتْ، وأعزّاء أو أصدقاء فقدناهم، وجميعنا بلا استثناء شعر فی لحظةٍ من لحظات حياته أن الحياة فی هذه الدنيا أصبحت عديمة الجدوى، وأنّها كفاحٌ طويلٌ وعقيمٌ، وأنّ لحظات السعادة والفرح فيها أقل بكثير من لحظات المشقّة والعناء.

إن ظاهرة الألم قد انعكست فی الأدب وكانت فی أدب الرومانسيين أشد انعكاساً. ولقد عالج الشابی، هذه الظاهرة فی معظم قصائده لأنّه كان يعانی الأمرّين، ضغوطا نفسية وضغوطا جسميّة؛ فالضغوط النفسيّة نتجت عن فقدان والده وفراق حبيبته، فضلا عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المتردّية التی لحقت بشعبه بسبب الاستعمار والتخلّف، والأهمّ من ذلک ظلم المجتمع له، والضغوط الجسميّة نتجت عن مرضه الذی عانی منه كثيراً ورمز إليه فی بعض أشعاره.

فالأوضاع المأساويّة التی أحاطت بالمجتمع التونسی بسبب الاستعمار من ناحية، والتخلف والجمود من ناحية أخرى، أثّرتْ على نفسيّة الشاعر الحسّاس تأثيراً قويّاً ممّا جعلته يتألم ويتعذب أشدّ العذاب. ولقد أشار الشابی فی قصائد عديدة إلی الحياة الصعبة المريرة التی يعيشها هو وشعبه تحت وطأة الاستعمار؛ ففی قصيدته للتاريخ، يقول.

البؤسُ لابنِ الشَعبِ يأكلُ قلبه   والمجــدُ والإثــراءُ للأغرابِ
هــذا قليــلٌ مِــنْ حيــاةٍ مُرَّةٍ   فی دولــةِ الأنصاب والألقاب

(المصدر نفسه: ۲۶)

وفی قصيدته الدنيا الميّتة، لايتألم الشابی من الظلم والاستبداد الذی حلّ بقومه بل يتألم من تخلّف شعبه وجموده، ورجعيّته وجهله، فيقول:

إنّی أری فأری جموعاً جمّةً   لكنّهــا تحيــا بــلا ألبــابِ

(المصدر نفسه: ۲۸)

ومن أبرز آلام الشابّی النفسيّة ظُلْمُ المجتمع له، فهو يبذل قصاری جهده للدّفاع عن

حقّ شعبه والرفع من مستواه الفكری والثقافی وتوفير السعادة له، لكنّه لايظفر عنده بإقبال وإجلال؛ لذا تثور ثائرته وينقم علی المجتمع الذی لايكترثُ لنصائحه ولايقدّر ما يقوم به الشاعر من أعمالٍ لرفع نير الظلم عنه. فيراه روحاً غبيّة تكره التقدّم والنور، و تحبّ الجهل والد يجور.فهو يعرب عن هذا المصدر فی قصيدته النبّی المجهول، بقوله:

أنــت روحٌ غبيّــةٌ تكــرَهُ النــورَ   وتقْضــی الدّهورَ فــی ليل مَلْس
أنت لاتدرک الحقائق إن طافتْ   حواليــک دون مــسّ وجــسّ
فی صباحِ الحياة ضمّختُ أكوابی   وأترعتُهــا بخمــرةِ نفســی
ثــمّ قدّمتُهــا إليــک فأهرقــتَ   رحيقی و دُسْــتَ يا شعبُ كأسی
فتألّمــتُ ثــمّ أســكتُّ آلامــی   وكفكفتُ من شــعوری وحسِّــی

(المصدر نفسه: ۲۸)

وممّ زاد من حدّة آلام الشابی، ونغّصَ عليه عيشه أكثرمن ذی قبل، موت أبيه الذی كان يراه ملاذاً لنفسه عندما تشتدّ به الكربات، وتثقل كاهله المشاكل والأحداث. ففی قصيدة ياموت، نری الشابی يصرخ صرخةً مليئةً بالذكريات ممزوجةً بالأحزان والأشجان فيقول:

ياموتُ قــد مزّقتَ صدری   وقصمتَ بــالأرزاءِ ظهری
ورَمَيْتَنِــی مــن حالــقٍ   وسَــخِرْتَ منّی أی سُــخْرِ
وفجعتنــی فيمــن أحِــبُّ   و مــن إليــه أبــثُّ سـرّی
وأعِــدُّه فجــری الجميــلَ   إذا اُدلهــمَّ علــی دهــری
ورزأْتَنِــی فــی عمدتــی   ومشــورتی فــی كلِّ أمری

(المصدر نفسه: ۸۰)

ولقد أثّرت الضغوط النفسيّة والجسميّة علی الشابی تأثير بالغاً أدّی به إلی التشاؤم والكآبة؛ وإنّ من أبرز قصائده التی حملت ميسم التشاؤم قصيدته إلی الله، ففی هذه القصيدة تشتدّ الآلام والمصائب علی الشابی حيث لايجد فی الكون إلاّ الظلمة والحلكة. فيتجه إلی الله سبحانه وتعالی ويزلّ زلّة عظيمة ولكنّه سرعان ما يعود إلی رشده ويستغفر

ربّه يذكرُ أنّه تفوّه بهذه العبارات وهو فى أشدّ حالةٍ من اليأس والقنوط والأسى. فيبتدأ قصيدته بقوله:

يــا إله الوجودِ هــذى جراحٌ   فى فؤادى تشكو إليك الدّواهى
هــذه زفــرة يُصعّدهــا الهــمُّ   إلى مَسْــمَعِ الفضاء الســاهى

ثمّ يلقى اللوم على الله سبحانه وتعالى ويقول:

أنــتَ عذّبتنــى بدقّــةِ حسِّــى   وجرّعتنــى مــرارةَ آهِ
أنــتَ عذّبتنــى بدقّــةِ حسِّــى   وتعقّبتنــى بــكلِّ الدَّواهــى
بالأسى، بالسّقام، بالهمّ، بالوحشة   باليــأس، بالشــقاء اللامتناهى

إلى أن يصل:

يا ضميرَ الوجودِ يا عالَم الأر   واح يا أيّها الفضاءُ الســاهى
خبّرونــى هل للورى من إلاه   راحــم- مثلِ زعمهــم- أوّاه
إنّنى لم أجده فــى هذه الدُّنــ   يا فهل خلــف أُفْقِها مِنْ إلاه

لكن سرعان ما يفيق الشاعر، ويستغفر ربه ويقول:

مــا الُذى قدْ اتيتَ يا قَلْبِىَ البـ   ـاكى وماذا قد قلتِه يا شفاهى
ياإلهى قــد أَنْطَقَ الهــمُّ قلبى   بالــذى كان فاغتفــرْ يا إلهى

(المصدر نفسه: ١٤٠-١٣٨)

إنّنا فى هذه القصيدة نشعرُ أن التشاؤم أصبح كلهيب نار متّقدة فى نفسِ الشاعر إلى أن بَلَغ به أن يتنكّر لوجود الله – سبحانه و تعالى- ويطرح اللوم عليه؛ وهذا ما بدا واضحا فى كثير من أشعار الرومانسيين الذين ثاروا على كلّ شيء حتى على خالقهم الذى خلقهم وخلق لهم ما فى الأرض جميعا.

النتيجة

لقد تجلت مظاهر الرومانسية فى جميع نتاجات الشابى الشعرية حيث كان ثائرا على المضامين الشعرية القديمة الجافّة، وهذا ما نراه واضحاً وجليّا من خلال أفكاره ومبادئه

التی اعتمد فیها علی الذاتیة أو الفردیة التی تتضمن عواطف الحزن والكآبة والأمل، وأحیاناً الثورة علی المجتمع و التحرر من قیود العقل والواقعیة والتحلیق فی رحاب الخیال والصور والأحلام؛ هذا فضلا عن اهتمامه بالطبیعة التی كانت عنده رمزا للطهر ومثالا عالیا للاحتذاء والاقتداء ومعبدا للروح ومستودعا للأسرار والهموم وأداة للتخلص مما فی دنیا الناس من همجیة وظلم وانتهاک لحقوق الإنسان.

المصادر والمراجع

ابن خفاجة الأندلسی، إبراهیم ابن أبی الفتح. لاتا. *الدیوان*. تحقیق عمر فاروق الطبّاع. بیروت: دار القلم.

الأصغر، عبدالرزاق. ۲۰۰۱م. *المذاهب الأدبیة لدی الغرب"الرومانسیة"*. مجلة دراسات أدبیة. العدد۳۷۰. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

الأیّوبی، یاسین. ۱۹۸۴م. *مذاهب الأدب «معالم و انعكاسات»*. بیروت: دار العلم للملایین.

البعینی، نجیب. ۲۰۰۸م. *موسوعة الشعراء العرب المعاصرین*. بیروت: دار المناهل.

التلیسی، خلیفة محمّد. ۱۹۶۷م. *الشابی وجبران*. بیروت: دارالثقافة.

بثینة، جمیل. ۱۹۹۳م. *الدیوان*. تحقیق مهدی محمد ناصر الدین. بیروت: دارالكتب العلمیّة.

الشابی، أبوالقاسم. ۱۹۹۷م. *دیوان أغانی الحیاة*. ضبط وشرح یحیی الشامی. بیروت: دار الفكر.

الشنفری، عمرو بن مالک. ۱۹۹۶م. *الدیوان*. تحقیق إمیل بدیع یعقوب. بیروت: دار الكتاب العربی.

العشماوی، أحمد زكی. لاتا. *الأدب العربی وقیم الحیاة المعاصرة*. الإسكندریة: الهیئة المصریة العامة.

كرو، أبوالقاسم محمد. ۱۹۹۹م. موسوعة *الشابی*. بیروت: دار صادر.

المتنبی، أبوالطیّب. لاتا. *الدیوان*. شرح أبی البقاء العكبری. بیروت: دار المعرفة.

النویهی، محمد. ۲۰۰۰م. *قضیّة الشعر الجدید*. بیروت: دارالفكر.

هدّاره، محمّد مصطفی. ۱۹۹۴م. *دراسات فی الشعر العربی الحدیث*. بیروت: دار النهضة العربیّة.

الورقی، السعید. ۱۹۸۴م. *لغة الشعر العربی الحدیث*. بیروت: دار النهضة العربیة.